# الفصل الثامن

## العلم وخطط بناء حضارة مابعد الحداثة العربية

هل غاب العلم الحديث من منظومة العقل العربى المعاصر؟ هذا سؤال يحتاج إلى إجابة شافية كافية، خاصة فى هذه العصور التى فاقتنا فيها أغلب الأمم التى تسلحت بالعلم والعمل، وأقامت نهضة إنسانية أسهمت فى رقى المجتمعات وتيسير حياة الإنسان. إن الأمم فى سعيها إلى التطور تغذى حاضرها بالعلم والعمل، وتنظر إلى الماضى نظرة تشخيص وتحليل ونقد واستفادة من الدروس والعبر؛ وعلى أساس ذلك تبنى مستقبلها. ونحن كأمة عربية إسلامية للأسف نقف مكتوفى الأيدي نتغنى بأمجاد الأسلاف، وما وصلت إليه عبقريتهم؛ نحن نتغنى بحضارات كانت موجودة قبل مئات السنين، وبدلًا من أن نبنى عليها لبنات المستقبل، جعلناها واجهة فى خلفية حاضرنا نتباهى بها ونتمسح بها.

كانت إسهامات العلم العربى فى مرحلة من تاريخ الحضارة الإنسانية المنطوية تحت قبة الحضارة الإسلامية تتمثل فى ترجمة العلوم القديمة إلى العربية التى كانت لغة العلم الأساسية آنذاك، إن العلوم العربية فى عصرنا الآن لم تعد ما كانت عليه؛ وهذه كارثة؛ وروح المبادرة خفقت حتى تكاد أن تنتهى. من هنا تبرز أهمية الاستثمار فى العقل البشرى الذى هو العامل الأساسى والمشترك لبناء كافة أشكال الحضارة مادة وفكرًا؛ من خلال المحافظة عليه وتربيته وتنشئة بطريقة صحيحة، ليؤدى دوره كاملًا فى بناء المجتمع وتكوين الحضارة والارتقاء بها.

لقد قال ابن خلدون فى تفسيره للتاريخ (فإن التطور سنة من سنن الله فى الحياة الاجتماعية)؛ لكن أين نحن من «التطور»؟ دعونا لا نهمل هنا دور العقل العربى فى دفع عجلة الحضارة الحديثة إلى الأمام من خلال مايسمى بـ «هجرة العقول». إن من الأسباب التى تؤدى للهجرة عدم الاهتمام بالعقول المستنيرة؛ وإهمالها وعدم إتاحة الفرصة للبحث والإبداع، بالإضافة إلى الوضع الاقتصادى الصعب فى بعض الدول العربية؛ وظاهرة الوساطة والمحسوبية التى

تعتبر قاتلة لأية موهبة، وإذا كان الغرب قد بنى نهضته الحديثة على العقل والعلم؛ وانطلق من خلال مخاضات عسيرة لبناء وتحقيق أحلامه وقيمه؛ فأين نحن العرب؟ كيف نتحول من ثقافة الاستهلاك التى أدمناها؛ وانتظار هبات الحضارة الغربية بكل محاسنها ومساوئها؛ إلى ثقافة إنتاجية، وماذا نقول للأجيال القادمة وقد لعبت الحضارة الجديدة دورًا بالغًا فى حياتهم ولم يقف تأثيرها عند هذا الحد بل دفعتهم إلى أن يطرح السؤال نفسه الآن هو: هل العقل العربى غير قادر على اللحاق بركب الحضارة والتقدم والعلم والتطور والازدهار الحقيقى؟ هذا ماسوف نحاول أن نجيب عليه من خلال هذا الجزء من دراستى حول العقل العربى.

### * العقل الغيبى والعقل العلمى

يعتمد العقل البشرى فى تفسيره للظواهر الطبيعية التى تحيط به على عدد من الأدوات التى تمكنه من استيعاب التغييرات والتطورات، التى يستقبلها من خلال الحواس الطبيعية المتعارف عليها؛ إلا أن أحد أهم الإمكانات التى يتمتع بها العقل البشرى هو قدرته على اعتماد التفاسير الموازية للوقائع الطبيعية التى يصعب عليه تفسيرها من خلال الحواس أو من خلال المشاهدة والتحليل المنطقى والفلسفى. والتفسير الغيبي أو الخرافى للعالم وللطبيعة التى تحيط بنا هو من أقدم التفاسير التى أوجدت ليس فقط القصص والحكايات التقليدية والشعبية، والتى بدورها تتحول فى تطورها الطبيعى إلى مجموعة من القيم والطقوس والقوانين التى يتم فلسفتها ووصفها فى إطار الدين والتفسير الدينى الذى يختلف من زمن إلى آخر ومن ثقافة إلى أخرى؛ ومع تطور أدوات التفكير البشرى وأدوات البحث والتفسير العلمى وخاصة فى القرنين التاسع عشر والعشرين؛ أصبح من المحتم أن يحدث التصادم بين التفسير الخرافى والتفسير العلمى لهذا العالم الذى نعيش فيه. وعلى الرغم من التباهى العربى بتاريخ الحضارة الإسلامية بشكل عام يجعل المرء يقف مشدوها أمام سيطرة التفكير الخرافى ليس على مستوى أفراد، ولكن على مستوى مجتمعات بأكملها؛ بل أكاد لا أبالغ إن قلت بأن العقود الثلاث الأخيرة شهدت تناميًا مرعبًا للتفكير الخرافى والغيبى فى المجتمعات العربية مقابل تطور نسبى للتفكير العلمى فى الربع الثانى والثالث من القرن الماضى. ولا يقتصر تنامى الخرافة كظاهرة على المجتمعات العربية فحسب؛ فهناك مجتمعات أكثر تقدمًا تظهر فيها الخرافة فى شكل مايسمى «العلم المزيف» وخاصة فى المجال الصحى والطبى البديل، الذى لا يعتمد على الدليل البحثى والعلمى القابل للنقد والتفنيد، وإعادة البحث إلا أنه لا يتشكل فى وجود ارتفاع مستويات الأمية والفقر والبطالة وقمع الحريات العامة والاحتقان السياسى والاقتصادى الذى تعانى

منه غالبية المجتمعات العربية؛ وهو ما يمنح أرضية خصبة لتنامى التفكير والعقل الخرافى أو على الأقل العيش ضمن ثنائية انفصامية متناقضة بين العلوم الحديثة التى تقدم فى المدارس والجامعات وبين الخرافات التى تعتمد على الإيمان الأعمى والتسليم المطلق، حتى وإن كانت مناقضة بشكل صارخ لكل مايتم تدريسه من علوم فى المؤسسات التعليمية العربية. إن العلم يناقض الخرافات ولكنه لا يناقض الدين بالمرة. إن الدين والعلم والعقل ثلاثية متشابكة تكون المفهوم البشرى فى الحياة؛ يغذى الواحد الآخر فى علاقة تبادلية صحيحة تمنى العقل الإنسانى فى الاتجاه المتطور والحديث للحضارة الإنسانية.

### * الدين والعلم لا يتناقضان

الدين والعلم توأمان لا انفكاك لأحدهما عن الآخر، فهما للإنسان بمثابة الجناحين للطائر يطير بهما؛ ومن الواضح ان جناحًا واحدًا لا يكفى للطيران؛ وكل دين يتجرد من العلم فهو تقليد لا اعتقاد (أى وضعه أناس بغير سلطان الله) كما قال الكاتب عمرو توفيق فى إحدى مقالاته؛ ومجاز حقيقة؛ ولذلك كان التعليم فريضة من فرائض الدين، فإذا وجدت مسألة من مسائل الدين لا تطابق العقل والعلم كانت هذه المسألة وهمًا، لأن الجهل مضاد للعلم، فإذا كان الدين ضد العلم وهذا غير حقيقي، فهو جهل، وإذا كانت هناك مسألة تخرج عن طور العقل الكلي الإلهي فكيف نتوقع أن يقنع بها الإنسان، إذ أنه لو فعل ذلك لسمينا ذلك اعتقاد العوام.

إن الأساس الذي وضعه جميع الأنبياء عليهم السلام هو الحقيقة. وهى واحدة ومطابقة بأكملها للعلم. فوحدانية الله مثلًا. أليست مطابقة للعقل؟ والروحانية الإنسانية أليست مطابقة للعقل؟ والنية الصادقة والصدق والأمانة والوفاء أليست مطابقة للعقل؟ والاستقامة والأخلاق الحميدة أليست مطابقة للعقل؟ إذًا فجميع أحكام الشريعة الإلهية مطابقة للعقل.

ويمكن بناء على ذلك أن نقسم الدين إلى قسمين، أحدهما يختص بالأخلاق والقيم الإنسانية والمعرفة والسلوكيات والفضائل الأخلاقية، أما القسم الثاني من الدين الإلهي، وهو المتعلق بالأجسام والأحكام، فإنه يتغير ويتبدل بمقتضى الزمان والمكان، ففي زمان النبي موسى عليه السلام، نصت التوراة على عشرة أحكام بالقتل، وكان ذلك بمقتضى أحكام ذلك الزمان. أما في عهد المسيح، فإن الزمان لم يكن يقتضي ذلك. ثم جاء الإسلام ليقر بعض الأحكام ويمحو البعض الآخر وينشئ أحكامًا جديدة؛ ذلك لأن الزمان لا يقتضي كل ما كان قبله. اتضح أن لشريعة الله قسمين، أحدهما: روحاني يتعلق بعالم الأخلاق والمعرفة وفضائل العالم الإنساني، وهذا لا تغيير فيه ولا تبديل، فهو واحد دائمًا أبدًا، والثاني: لا يتعلق بالأخلاق، وهذا يتغير حسب مقتضيات الزمان.

إن أساس دين الله هو الأخلاق وإشراق نور المعرفة والفضائل الإنسانية، وكل ملة أو مذهب ديني ترتقي إذا تحسنت أخلاقها، كما أن تهذيب الأخلاق مطابق للعقل، ولا خلاف في ذلك أبدًا، لذلك إذا كان الدين مخالفًا للعقل فهو أوهام، فطابقوا إذن جميع عقائدكم على العلم حتى يتفق العلم والدين، ذلك لأن الدين هو أحد جناحي الإنسان، والعلم هو الجناح الآخر والإنسان يطير بجناحين ولا يستطيع أن يطير بجناح واحد. أما جميع تقاليد وحواشي الأديان الإضافية التي زادها البشر من تلقاء أنفسهم فكثير منها مخالفة للعقل والعلم ولحقيقة الأديان.

ومن هذه الإضافات والتقاليد نشأت المفاسد التي أصبحت سببًا للعداوة والبغضاء بين البشر، ولو طابق الناس بين الدين والعلم لظهرت الحقيقة. ولأصبح ظهور الحقيقة سببًا لإزالة الخلاف، ولزال البغض الديني بل لاختلط جميع البشر مع بعضهم البعض بنهاية الألفة والمحبة. إن بداية تطوير العقلية الإنسانية عامة والعربية خاصة هي في تركيز أفكار الإنسان على تطبيق العلم على الدين وتطبيق الدين على العلم.

إن على الإنسان العربي والمسلم أن يتخلى عن الفكر الغيبي والأوهام، وأن يتحرى الحقيقة. فكل ما نراه مطابقًا للحقيقة نقبله، وكل ما لا يصدقه العلم ولا يقبله العقل فهو ليس بحقيقة بل تقاليد، وهذه التقاليد يجب نبذها ويجب التمسك بالحقيقة، فلا نقبل الدين الذي لا يطابق العقل والعلم. وحينما يتم هذا لا يبقى اختلاف بين البشر إطلاقًا، ونصبح جميعًا ملة واحدة وجنسًا واحدًا وسياسة واحدة وتربية واحدة. إن العلم الحقيقي نور ولابد أن يكون ما يخالفه ظلمة، إذن فالدين نور أيضًا يطابق العلم والعقل؛ ولهذا في تحليلي أنا المتواضع، لما كانت جميع هذه التقاليد الموجودة بين الأمم مخالفة للعلم والعقل، لذلك صارت سبب الاختلاف والأوهام. أما بالنسبة للعقل العربي والأمة العربية الإسلامية، فيجب علينا أن نتحرى الحقيقة، الحقيقة العلمية المطابقة للعقل والدين، وأن نصل إلى حقيقة كل أمر عن طريق تطبيق المسائل الروحانية مع العلم والعقل، فإن تم هذا تصبح جميع مشكلات التخلف العلمي والحضاري للعقل العربي قد حُلت لأبد.

### ـ دور العلم في تقدم المجتمع العربي

لا شك أن للعلم أهمية كبيرة، وميزة خاصة لدى العقلاء من الناس، ووصف العالم ينطبق على كل من ملك العلم، وفي أي فن من فنون الحياة، وسواء كان ذلك الشخص مسلمًا أو غير مسلم، عربيًا أو غير عربي، صالحًا كان أم ظالمًا، غنيًا أم فقيرًا. وتزداد أهمية العالم بزيادة أهمية

العلم الذي يحمله، فكلما كانت حاجة الناس إلى ذلك العلم شديدة كان اهتمامهم به أكبر وأكثر، ومن غير منازع أن العلوم التي تخدم البشرية، وتسهم في تقدمها وازدهارها، لها أولوية كبيرة، وخاصة في هذا العصر، فتنفق الدول المليارات من الدولارات من أجل الاستكشافات العلمية الحديثة، سواء كانت في الغوص في أعماق البحار والمحيطات، أو غزو الكواكب والمجرات.

إن جميع الاكتشافات والأبحاث العلمية يرجع نفعها دائمًا على الإنسان، ولهذا أكد الله تعالى على العلم وأثنى على العلماء، فقال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾. ثم بيَّن النبي (ﷺ) لنا أهمية العلم، ودوره في حياة الناس، بل جعل وجود العلماء بيننا سببًا للأمن والاستقرار، ونشر العدل والمساواة بين الخلق، وكما أخبرنا الرسول (ﷺ) في هذا الحديث الصحيح: (إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالمًا، اتخذ الناس رؤسًا جهالًا، فسئلوا، فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا) رواه الشيخان.

فإذا غاب العلماء، انحرف الناس عن جادة الحق والصواب، وسادهم الجهل، بسبب تصدر الجهلاء من الناس لإدارة أمور الخلق: الدينية، والسياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية، إلخ... فتجنى الشعوب الكوارث الجسيمة بتصدر هؤلاء الجهلاء، وأخذهم المناصب الرفيعة في الدولة والمجتمع، وهذا ما يحدث الآن في المجتمع العربي المعاصر، إننا نفتقد إلى قيادة مخلصة تجمع بين العلم والعقل الواعي؛ لأن الكلام بلا علم جهل، والجاهل يفسد أكثر مما يصلح، ولأن الكلام بلا عقل يؤدي إلى الاندفاع الجارف الذي تستولى عليه العاطفة، وإذا لم توزن العاطفة بميزان الشرع والعقل، فإنها ستصير عاصفة تضر بكل من في مجتمعنا المغلوب على أمره.

### ـ لماذا ابتعد العقل العربي المعاصر عن العلم؟

لقد أوضحت في فصل سابق من هذا الكتاب أسباب التخلف العربي، وجذور الفشل وعوامل الانحطاط وما تعيشه الأمة من آثار سلبية في كافة الجوانب على الرغم من التغييرات البسيطة في مجالات السياسة والاقتصاد والتعليم، التي تتباهى بها بعض الأنظمة من المشرق حتى المغرب، وتطلق عليها في ذات الوقت عدة مصطلحات مثل «إنجاز ونهضة وتقدم». إن هذا الفشل الذريع والتردي الذي تتحدث عنه كثير من الدراسات أرجعه كثير من المفكرين والفلاسفة العرب لعدة أسباب جوهرية، على رأسها غياب منهج التفكير العلمي العربي نتيجة لما يعيشه العقل الفردي والجماعي من أوضاع صعبة وظروف متردية تمتد جذورها لفترات زمنية طويلة غير محددة.

والعقل بالأساس، كما سبق أن وضحت هو حصيلة الأفكار والقيم والمبادئ والمعتقدات والعادات التي ترتكز عليها الثقافة المنتمى إليها ذلك العقل، ونظرة سريعة لصفات وخصائص العقل العربي تدفعنا لاكتشاف ما يمر به هذا العقل من حالات حرجة وأوضاع متأزمة تُسهم بشكل جوهري في ابتعاده عن المنطق العلمي في البحث والتفكير، وذلك بسبب سيطرة جملة من الأفكار على جزء من تكوينه وتفكيره، لتؤدي بمرور الزمان لوضعه في حالة أشبه بالأسير التابع في سجن كبير لا يستطيع الخلاص من قيوده ولا الفكاك من قبضة سجانه.

فهذا العقل يتصف بأنه كما كررت من قبل، عقل ما ضوي يتغنى بالماضي والأمجاد العتيقة، ويتعلق بجزء من المعتقدات ذات الطابع التقليدي التي لا تجر معها سوى المآسي والحروب الطائفية والمشاحنات القبلية. كما أنه يتصف دائمًا بسلبية الرجوع للخلف والالتصاق بالتفسير الماضوي لحقائق العلم والتقدم دون إعطاء فرصة للعقل للانطلاق والتوسع في مجالات التفكير نحو المستقبل الذي يمثله العلم؛ لذا فإن التفسيرات المحددة والدوران في الحلقات المفرغة يجعله دائمًا محبوسًا في مساحات ضيقة وحدود مغلقة.

وهو من جانب آخر عقل غير واعٍ يعيش حالة من الغيبوبة والسلبية والتناقض وخصوصًا أمام التطور السريع الحاصل في العالم الذي ينتمي إليه دون أن يتفاعل معه أو يستفيد منه بطريقة جديدة من أجل تحقيق قفزات واسعة وانتشال أوطانه ومجتمعاته من حالات الانحطاط إلى حالات الازدهار والذى لن يحدث إلا بالتقدم العلمى واستخدام منهج التفكير العلمى الصحيح؛ وذلك راجع بالأساس لاعتقاده أن مفهوم المعاصرة والحداثة عبارة عن حرب ثقافية ضد قلاعه الفكرية وحصونه العقائدية، وميراثه الحضارى مما جعله فى وصفية المشتت بين الحفاظ على الهوية الموروثة أو تزييفها أو البحث عن هوية مصطنعة أخرى دون إدراك الأسباب الرئيسية لحدوث ذلك التخبط، فجزء من تلك الأسباب واقع فى سوء تعامل العقل العربى مع الواقع وتغافله عن إدراك تفاعلاته وطبيعة القوى التى تتحكم فيه، كما أن أحد أسباب حدوث ذلك التخبط هو سوء فهم الأحداث الجارية الآن فى المجالات العلمية والإنسانية فى العالم ومفهوم المعاصرة والتقدم دفعته نحو تجاهل تحديات المستقبل والتغافل عن اقتناص الفرص وإهمال التوجه نحو مسارات التقدم والحداثة. إن النقطة الأبرز فى معاناة العقل العربى تتمثل فى وجود ثقافة أحادية الجانب تسيطر على تفكير الأفراد فى كثير من المجتمعات العربية؛ وتسعى لتوزيع قيم القبيلة أو الطائفة أو الانفلات عن الذات بين أفرادها؛ وقيم أخرى ذات طابع انعزالى ونزعة شوفينية؛ بل تمتد هذه الثقافة بجذورها لما قبل الإسلام، بحيث ظلت لوقتنا

الحاضر ولم تستفد من الثورة الفكرية التى أحدثها الإسلام؛فقد انقلب العقل العربى بعد فترة من ظهور الإسلام على أجزاء مهمة من القيم العظيمة والمبادئ العليا؛ وأبرز تلك المبادئ «العدل» الذى غاب عن بلاط الحكام العرب مما نتج عنه افتقار الحياة العربية لمبدأ «العدل» فى شتى شئون نواحى الحياة عبر قرون طويلة. كل ذلك أدى لوجود مجتمعات متخلفة تملؤها العواطف الساخنة والأوهام الكاذبة؛ لتنتج عن تلك السلوكيات عدة مساوئ وأضرار منها:

١ ـ سوء الإدارة.

٢ ـ مركزية الدولة.

٣ ـ انتشار الفساد.

٤ ـ أنظمة تعليم متهالكة.

٥ ـ اقتصاديات هشة.

٦ ـ أشكال مختلفة للتعصب.

٧ ـ غلبة العاطفة فى الأمور الاجتماعية والسياسية.

٨ ـ بروز «الأنا» المتضخمة ضد المخالف للمذهب والعِرق والطائفة والوطن.

٩ ـ طغيان ماضوية المذاهب التى أغرقت الأفراد والمجتمعات بمزيد من الخلافات الحادة والأحقاد المدمرة.

إن المجتمعات العربية تعيش اليوم أشبه بحالة اللاوعى والخوف من طرح الأفكار التجديدية والأطروحات التنويرية مع وقوف عقل النخب العربية فى الظل، بحيث أصبحت غير قادرة على ممارسة دورها فى ارتقاء السبل العلمية الحديثة؛ ورسم إشارات التقدم ووضع خطط فاعلة للخروج بالعقل العربى من مأزقه. والأصعب من ذلك أن الفشل فى مواجهة النظام العالمى الجديد أدى وسيؤدي لغياب الكثير من القيم النبيلة وإلغاء الكثير من معالم جغرافية؛ وسيمهد نحو بروز إشكالية المجتمعات الاستهلاكية غير المنتجة وربما نصل سريعًا إلى مرحلة المجتمعات المادية مما يؤدى بشكل كبير لتشويه العقل العربى أكثر مما هو مشوه ووضعه فى خاصة أشد مأسوية، ولكن ماهو السبيل لانتشال العقل العربى من مأساته؟ إن الحل هو إخضاعه لعملية نقد واسعة ومراجعة دقيقة ودراسة متعمقة وتحليل منطقى من خلالها مناقشة مجموعة الأفكار الحالية والمعتقدات والقضايا التاريخية التابعة فى عقل الإنسان العربى لأجل

غربلته من الشوائب، وتنميتة من السلبيات مع الاحتفاظ بجزء من القيم الأصيلة والمبادئ العليا ذات الجذور الإسلامية والعربية؛ بالإضافة إلى أهمية قراءة التاريخ بنظرة دقيقة وفاحصة لفهم الحاضر والماضي والمستقبل، والأهم من ذلك مناقشة تفاصيل اللحظة الراهنة بكل ما تحتويه من ظروف قاهرة وأوضاع مأسوية، وعندما يتحقق ذلك رغم استحالته سيتمهد الطريق نحو نقل العقل العربي من حالة الخمول إلى حالة النشاط بل سينقذ نفسه من وضعية التأزم إلى وضعية الانفراج، وسيكسر كافة القيود، ويعبر كل الحواجز مهما كانت، وهنا ندرك في المحصلة النهائية أهمية نقطة تحرر العقل العربي التي هى أهم وسيلة لتخليص العرب بقياداتهم ودولهم ومجتمعاتهم ومثقفيهم وأفرادهم من قيود الانعزال والظلام إلى التنوير والانفتاح وتبني أفكار الحداثة التي تدعو لنشر مبادئ مرتبطة بالعقل والضمير والأخلاق والحرية والمساواة وأخيرًا وليس آخرًا الإبداع في شتى المجالات وخصوصًا في المجال العلمي الذي هو معبر هذه المجتمعات نحو الحداثة والتطور.

## ـ العقل العربي ومستقبل الإصلاح المعرفي بين العلم والفلسفة والدين

لتلخيص مستقبل وخطط الإصلاح للعقل العربي بين العلم والفلسفة والدين؛ لأن الثلاثة مرتبطون ارتباطًا متداخلًا وتامًا، أشير هنا إلى دراسة فلسفية قيمة قام بها الأستاذ الدكتور علي حسين الجابري، وهو أحد أساتذة الفلسفة بالجامعة المستنصرية بكلية العلوم الإسلامية بجامعة كربلاء بالعراق، لقد لخص هذا الباحث الكبير محور خطط الإصلاح المعرفى للعقل العربي في أنه إذا كانت جدلية (البداوة والحضارة) هى التي تحرك التاريخ وتعكس طبيعة نشاط المجتمع العربي والعقل العربي على قاعدة من (العصبية والترف) التي تقوم عليها الحضارة أو تتأزم بها كما اكتشفها ابن خلدون من مصادره الدينية التراثية، والواقعية الاجتماعية، والأخلاقية السياسية ممثلة بتفاعل السيف والفكر، فإذا بنا اليوم ندخل في جدلية (الدين/ والفساد) و(الأخلاق/ التصدع) وصولًا إلى (العقلانية الإصلاحية) و(العلم والإيمان) المتوازنان وذلك لكى نعالج نتائج التحلل والتفكك والفساد المنتشر فى ربوع مجتمعاتنا العربية.

إن القيم الأخلاقية والدينية السليمة تطرد عوامل الفساد وظلام العقول، وتطهير نوايا الناس من محركات السقوط وفقدان الثقة، وتبعث الحياة في العقول المشوشة المغيبة التي فقدت عوامل التفكير والتدبر.

إنه لا سبيل إلى الإصلاح من غير هذه المحاور الحيوية للإصلاح، بها يكون التجديد

ومعالجة الخلل وكشف بؤر الفساد المستشري في المجتمع العربي، التي تأخذ منفردة أو مجتمعة ولاء الساسة والنخبة الفاسدة على حساب أفراد المجتمع العربي المغلوب على أمره. إن اتباع العقل العربي لمنهج التجربة العلمية الرائدة في كل برهان ويقين هو الطريق الوحيد لبناء حياتنا على أسس التقدم والحداثة، ولكي تتوفر لنا أيضًا فرصة دخول أبواب المعرفة التي لا ينفتح أي منها أمامنا إلا إذا امتلكنا مفاتيحه، والتي من غيرها لا تتمكن الجماعات الإنسانية من مغادرة عوامل الجهل والضعف والتخلف والسكون الحضاري.

إن مهمة اليقظة والنهضة والتقدم التي نطالب بها العقل العربي لن تكتمل من غير عوامل مساعدة تربوية وعلمية ودينية وإعلامية وأكاديمية واقتصادية، ففي غيابها تتسع الفجوة بين ما نؤمن به من فلسفة وعقيدة وقيم ومبادئ وما نريده من أهداف إنسانية نبيلة ومشروعة. إن تلك العوامل المساعدة تعتبر الضوابط الأساسية للعبور المنشودة نحو وضع أفضل، ومن خلالها يجري الارتقاء بالمواطنين إلى مستوى عقلاني في بناء مثلث النهضة والتنوير والحضارة ويوازن بين التقدم العلمي والتطور المعرفي، ويحول صيرورة التاريخ وآلياته الرتيبة إلى صيرورة كما رآها المفكر الكبير (محمد أركون) يتغير فيها إيقاع الفعل التاريخي للناس إلى ميلاد عوامل فاعلية جدلية ـ تكاملية تعزز بفضلها علاقة أبناء المجتمع بالوطن والدولة والتراث وتخرج بالإنسان العربي من خموله وسكونه وعلاقته العضوية مع أطراف المعادلة الحضارية (الوطن والناس والتاريخ والدولة)إلى حيث يتغير إيقاع الزمن المحيط بالعقل العربي ليصبح المجتمع خلية نشطة للعمل والإبداع والرقي، حيث يتسابق الأفراد للإبداع كل في ميدان اختصاصه.

إن أفراد المجتمع العربي من خلال خطة التحديث العلمي والتطوير المقترحة للنهوض العلمي للعقل العربي يجب أن تتناغم أدوارها تبعًا لخطط الإصلاح وتتناغم حيث:

أ ـ يتواصل الفرد مع المجتمع حتى يصل به إلى مجتمع مدني مستقر ومجموعات إنسانية مطمئنة متماسكة.

ب ـ يتواصل المواطن مع الدولة وصولًا إلى روح المواطنة الصالحة في الحقوق والواجبات.

ج ـ تتواصل الجماعة مع المؤسسات لتنظيم الاقتصاد والإعلام والقانون والتربية والعلوم والآداب والفنون والعقائد.

د ـ تعزيز روح الحوار واحترام الرأي الآخر والإيمان بأن للحقيقة أكثر من طريق، ونسبية المعرفة وتواصل الأجيال وحوارها والشراكة الإنسانية مع الآخر المتقدم، كل في فضائله لبلوغ المرحلة الحديثة المبتغاه التي تؤمن بحوار المصالح والمنافع المتبادلة.

هـ ـ جميع ما يحدث في مجتمع المعرفة الجديد الذي علينا أن نعبر إليه ونسهم فيه يتطلب علاقات جدلية ـ تكاملية متفاعلة حتى يكون نشاطنا الحضاري مضافًا إلى نتاج المرحلة الحضارية المعاصرة لكي نختصر الزمن والجهد والتكلفة والمسافة ونقترب من الآخر المتقدم بما تسمح لنا به ظروف النظام العالمي الجديد المسمى بالعولمة أو الكيانات المجتمعة الكبيرة (الغربية/ أمريكية، آسيوية/ صينية، إلخ) إننا علينا أن نقتنع كعرب بضرورة الاستجابة للتحديات الكبرى في دواخلنا قبل خوض التجربة الواقعية للتحديث لنتغلب على العقبات الأساسية للتقدم والتحضر، وسوف أوجز بعضًا منها.

عقبات خطط التحديث العلمي والموفي للعقل العربي التي يجب أن نتغلب عليها:

١ ـ إحباطات التاريخ ودروسه السلبية ومساره البطيء.

٢ ـ خيبة الأمل السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتربوية.

٣ ـ حالة اليأس والإحباط التي حاصرت أفراد المجتمع العربي البسطاء المحاصرين بالقيود والتقاليد الضيقة الموروثة من آلاف السنين.

٤ ـ حالة التخلف والفقر والضعف والخوف من المجهول المنتشرة في ربوع المجتمع العربي.

٥ ـ الفساد الإداري وفساد الضمائر بشتى مسمياته، وأسبابه وظروف وجوده في جوانبنا الاجتماعية والنفسية.

إن ختام القول يتلخص في أن حقيقة الأمر فيما يتعلق بالواقع العربي الإسلامي العلمي والثقافي ولا سيما لشرائح الشباب العربي يتمثل للأسف في إعلام خطير يداعب الغرائز ويشغل تفكير المتابعين له بشتى وسائل الإثارة، إلى جانب عجز الحكومات العربية عن حل مشكلات الحياة اليومية والمزمنة لملايين البشر في مجتماعتهم، وبدا الأمر، وكأنه سوف يحل بالأنظمة والحضارة والمدنية الغربية المستوردة بمليارات الدولارات من غير أن يسأل المسئولون أنفسهم عن مستوى الوعي ونمط المعرفة لعامة الشباب العربي في عصر العلم الذي نعيش به الآن وفي زمن شعاره (المعرفة قوة)، لمجتمع يعاني من شروخ في بنية الثقافة والمجتمع والحياة والسياسة، استثمرها الآخرون في خطابهم ونقدهم الموجه إلى عالمنا العربي المسلم، ليتلاعب بأساسيات ثقافته، ويشوش على فكره، ويهدد قيمه، ويفقده ثقته بنفسه وبنسيجه الروحي ومنطلقاته العقدية وعلاقاته الاجتماعية والإنسانية مع الشعوب الأخرى المحيطة به في عالمنا الحديث.

إننا يجب علينا وضع مشروع تربوي وطني عربي/ مسلم يجهز الشباب، ويوفر لهم مناخًا إنسانيًّا، يرتقي بهم إلى مرحلة ما بعد الحداثة التي نعيشها الآن، وإلى مكانة عالية تتحدث وتفكر بالعلم الذي هو لغة العالم الذي نعيش فيه، هذا العلم الذي حثَّ الله به الإنسان لبلوغه، حيث أراد الله للإنسان أن يكون مستخلفًا على هذه الأرض بعلمه ومعرفته، ذلك هو منطق الاستخلاف الذي أراده الله عز وجل للإنسان.

* * *

obeikandl.com